صيد اللؤلؤ



٣

قصص وأسفار ومغامرات

منشورات
مكتبة الشرق
حلب

صيد اللؤلؤ

ترجمة الأديب
سعيد القضماني

تقديم وتوجيه
لطفي الصقال

نشر وتوزيع
مكتبة الشرق بحلب
عبد السميع عفيش

أخي الصغير !

إن اللؤلؤ ، هذا الدر الثمين ، الذي تتخذ منه النساء عقوداً وأساور وحلى كثيرة هو صنع حيوان بحري ، يوجد في أعماق البحار ، يدعى «المحار» ولو أنك علمت ما يلاقي صيادو اللؤلؤ من مصاعب ومتاعب ، وما يقتحمون من أهوال وأخطار ، لأدركت ان كل عزيز في الحياة صعب المنال كالدرّ .

وفي هذه القصة التي تدعى « صيد اللؤلؤ » يطلعك الاديب الاستاذ «سعيد القضماني» على أخبار البحار وأخطارها ما تشيب لهوله الولدان ؛ ويعرض عليك صفحة من حياة الغائصين على الدرّ ما يقف المرء حيالها وقفة الذاهل الحيران .

فأرجو أن تسر بهذه القصة الرائعة التي أهداها الاستاذ القضماني اليك والتي أراد بها أن يحفزك الى الجد والعمل ، وتحمل كل صعب في سبيل ادراك أمانيك « .. ولا بد دون الشهد من إبر النحل » .

صديق الاطفال
لطفي الصقال

١ — السفر

كُلَّما كانَ المركبُ يتقدمُ في البحرِ كانَ يُبْطِىءُ بالمسيرِ . فهذا هوَ « بحرُ المرجانِ » ، قربَ أوستراليا ، وهو مليءٌ بالجُزُرِ الصغيرةِ ، والصخورِ التي لا يُمكِنُ الاستدلالُ عليها إلا بلونِ الماءِ المُعتمِ .

وصاحَ الرئيسُ «روبير» فجأةً : هيَّا فانَّنا على وشكِ الوُصولِ .

وكانَ « يوسفُ » أحدُ الرُّكابِ ، فتىً في السادسةَ عشرةَ مِنْ عُمُرِهِ يتسلَّى برُؤْيَةِ الأجسامِ السوداءِ تَغْطُسُ في الماءِ وتختفي ، ثُمَّ تظهرُ بعدَ دقيقةٍ أوْ دقيقةٍ ونصف .

وأخيراً أصدرَ الرئيسُ أمرَهُ بالقاءِ المراسي والاستعداد للصيْدِ ، الذي سيبدأ في صباحِ الغدِ فكُنتَ لا تسمعُ إلاَّ صيحاتِ الفرحِ والحماسةِ ، وأصبحَ المركبُ في حركةٍ نشيطةٍ أشبهُ بحركةِ بيتِ النَّمْلِ .

وفي اليومِ الثاني، عندَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، أُنزِلَتِ القواربُ إلى البحرِ واحتلَّ الرِّجالُ أمكنتَهُم فيها ، وتقدمَ الرئيسُ بزَوْرَقه إلى الامام وأخذَ يتأمَّلُ أعماقَ الماءِ بمِنْظارٍ طويلٍ

ثُمَّ أشارَ بالتَّوقُّف فتوقَّفَت الزَّوارِقُ؛ وابتدأ الصيدُ.

كانَ يوسفُ واقفاً معَ «جون» أحدِ البحَّارين يتابعُ الحركةَ النشيطةَ بمنظارٍ أهداهُ إياهُ والدُهُ عندَما سمَحَ لهُ بالسَّفرِ معَ صديقِهِ الرئيس ليُساعِدَهُ في صيدِ اللُّؤلُؤِ. وكانَ



الغواصُونَ يربطُونَ الى أرجُلِهم اليُمنى حجراً ليصِلُوا بسرعةٍ إلى الأعماقِ، ويحمِلونَ كيساً في اليدِ اليُسرى ليضعُوا فيهِ ما يجمَعونَ من الأصدافِ. وكانَ يوسفُ يرى بعضَ الرجالِ جالسينَ في الزَّوارقِ يُساعِدونَ الغوَّاصينَ في الصعُودِ إلى سطحِ

البحرِ ، وذلكَ بشدِّ حبلٍ مربوطٍ بجسمِ كلِّ غوّاص .

وهكذا مرّتْ أسابيعُ ، تبعتها أسابيعُ ، حتى كادَ الزادُ أنْ ينفدَ ، فخصّصوا بضعةَ أيامٍ لإرسالِ بعثةٍ تجمعُ لهمُ القوتَ .

وكانَ على يوسفَ وصديقِه «جون» أن يعملا في شقِّ الأصدافِ واستخراجِ اللؤلؤِ ، وكانتِ الأصدافُ التي جُمعتْ في النهارِ كثيرةً ، ولكنّها لم تكُنْ لتحتوي إلاّ على لؤلؤٍ صغيرٍ جداً ، فالصيدُ لم يكُنْ موفّقاً ، وكانتْ تبدُو على الرئيسِ مظاهرُ الكدرِ ، والامتعاضِ . وتابعَ المركبُ سيرَهُ مُتّجِهاً نحوَ خطِّ الاستواء .

٢ — العاصفة

وظلَّ المركبُ يسيرُ بضعةَ أيامٍ بنشاطٍ وفرحٍ ، وكانتْ أياماً دسمةً عوّضتْ عنِ الأيامِ الماضيةِ الهزيلةِ ، فقد اصطادَ القومُ كثيراً من اللؤلؤِ ، ولمْ يتحدثْ أحدٌ في أمرِ العودةِ .

وفي ظُهرِ يومٍ حارٍّ مُحرقٍ ، كانَ يوسفُ يفتحُ الأصدافَ ويبحثُ عن اللؤلؤِ ، شعرَ بتيّارٍ من الهواءِ الرّطبِ يضربُ كتفيهِ ، فرفعَ رأسَهُ مذهولاً فرأى السّماءَ قد سُترتْ

بالغيوم السوداء، وكانت منذ دقائق صافية زرقاء، وازداد الهواء عصفاً، فصاح يوسف:

ـ ماذا حدث يا جون؟..

فخرج البحار من المطبخ وقال مضطرباً:

ـ إنها بوادر عاصفة.. وما كاد يتم كلامه حتى هبت ريح شديدة هزت المركب وجعلته يتمايل يميناً وشمالاً، ثم انهمرت أمطار غزيرة سريعة، واشتدت العاصفة اشتداداً عظيماً، فأخذ البحاران الصديقان يزحفان على أرض المركب، وصاح جون في أذن يوسف قائلاً:

ـ سنحاول أن نصل الى مؤخرة المركب لنحتمي هناك مخافة ان تطوح بنا الريح وتلقينا في البحر.

وكانت العاصفة قد اقتلعت الأشرعة، ثم كسرت الصاري الكبير وسمع لانكساره صوت رهيب.

جلس يوسف كئيباً ينظر الى الماء الذي يضرب جوانب المركب، وكأن ستاراً سميكاً من الظلمة قد أسدل حوله، فشعر بالخوف واليأس وقال في نفسه:

ـ هلْ أرى والدي المسكينَ يا ترى؟ وهلْ تركْتُ الى الأبدِ مدينتي الجميلةَ ؟ ... ثمّ هزّ رأسَهُ ليطْرُدَ منهُ هذهِ الافكارَ الأليمةَ السوداء، إذْ يجِبُ أنْ يحتَفِظَ بِشجاعتِهِ ونشاطِهِ حتى النّهايَةِ .

ثمّ سَمِعَ ضَجيجاً أصغى إليهِ ولمْ يَتبيَّنْ مصدرَهُ ، كانَ هذا الصوتُ يزدادُ شيئاً فشيئاً ، وأدركَ يوسفُ أخيراً أنَّهُ صوتُ تَكسُّرِ الأمواجِ على الصُّخُورِ فَصاحَ :

تعالَ بسُرعَةٍ ياجون . فهُناكَ أرضٌ يابسةٌ ليستْ بعيدةً عنَّا ولكنّي لا أعلمُ أينَ هيَ بسببِ هذا الضّبابِ الملعُونِ .

أسرعَ جون وأخذَ الاثنانِ يُنصِتانِ إلى الصّوتِ المُتزايِدِ والمَركَبُ يسيرُ باتجاهِ الرّياحِ ، وفجأةً صاحَ جون :

ـ انتَبه يا يوسفُ .. انحَرفْ قليلاً الى اليَمينِ ، ولكنْ الوقتَ فاتَ ، وبعدَ لحَظاتٍ سَمِعَ صوتَ صدمَةٍ ، وتوقفَ المركبُ عنِ المسيرِ إذ اصطَدمَ بصخرةٍ عائمةٍ وظلَّ مُعلقاً بها . قالَ جون :

ـ يَجِبُ ان نَلتَجِيءَ الى اليابسَةِ بالقاربِ الذي بَقِيَ



لدينا، وهذا من حسن حظنا ايضاً، فخذ ما يخصك وما نحتاج اليه كثيراً فربما لانستطيع العودة بسبب العواصف. فذهب يوسف يبحث عن منظاره الثمين وعن الكيس الصغير الذي يحتوي على اللؤلؤ.

٣ — حياة جديدة

أشرقت الشمس صباحاً، وكان الطقس جميلاً. فتسلق الصديقان الصخور ليلقيا نظرة على الارض التي استقبلتهما. إنها جزيرة صغيرة جداً لا تتجاوز مساحتها ثلاثة كيلومترات

مربعة ، ولا شك أنها خالية من السكان ، وهي جميلة مخضرة يجتازها نهر صغير ، وتحيط بها الصخور من كل جانب عدا جهة الساحل التي نزل بها الصديقان .

وبعد حين انتظمت حياتهما ، فنقلا مسكنهما الى صخرة أخرى في داخل الجزيرة بالقرب من النهر الصغير ، ثم اخذا في بناء كوخ من أغصان الأشجار ، وجعلا في زاوية منه موقداً يستدفئان به من البرد ويطبخان عليه طعامهما ، ثم وضعا على اعلى نقطة مرتفعة عصا طويلة في رأسها قطعة من القماش ليستدل بها الرفاق على مكانهما .

وعندما انتهيا من عملهما فكرا بالقيام بجولة في الجزيرة فقضيا نهاراً كاملاً يتجولان في جميع انحائها . كانت الجزيرة لا يسكنها إلا طيور كثيرة يظهر أنها لم تتعرف على الانسان ، لأنها تركتهما يقتربان منها دون خوف او وجل . لم يكن يعيش من الحيوانات غير هذه الطيور ، رغم الحشائش الكثيفة التي كانت على جانبي مجرى النهر ، ورغم الاشجار التي كانت تغطي القسم الأعظم من الجزيرة .

وَفي صَباحِ اليومِ الثّاني أسرَعَ يوسفُ وَتسلّقَ الصخُورَ وأخَذَ يجولُ بِبَصرِهِ في أطرافِ الأُفُقِ بِمِنظارِهِ المَحبُوبِ، ولكِنْ دونَ جَدْوَى ، ثُمّ استَحَمّ الصَّدِيقانِ في مياهِ البَحرِ ، وجلَسا يستدفِئانِ بِأشعّةِ الشَّمسِ .



وفي المساءِ كانَ يوسفُ بالقُربِ من الموقِدِ يراقبُ قِدْرَ الطّعامِ ، وجون يُدخّنُ في غليُولِه ، وكانتَ العاصِفةُ

تُدَوِّي دوِيّاً مُخيفاً في الخارجِ ، والامواجُ تتلاطَمُ على جوانبِ الجزيرةِ ، وفي كلِّ لحظةٍ كانَ الكوخُ يتمايلُ ويضطَرِبُ بتأثيرِ الرّياحِ الهوجاءِ .

قالَ يوسفُ : « وبعدَ ذلكَ هل لديكَ فِكرةٌ حسنةٌ ؟ او مشروعٌ جديدٌ يضمَنُ لنا المودةَ ؟ .. قالَ جون :

إنكَ تطلبُ مني شيئاً بعيداً ، كلاّ ... فليس لديّ مشروعٌ خاصٌ او فِكرةٌ معيّنةٌ . ولكن إذا اصابكَ هُنا ضَجَرٌ كثيرٌ ، فيُمكِنُنا إذا أرَدتَ ، ان نزورَ بقارِبنا جميعَ هذه الجُزُرِ المُقفِرَة ، المنتَشرةِ هُنا وهنالكَ ، وهذه تَسليَةٌ لذيذةٌ . ثُمّ ألا ترى أنّنا سُعداءُ ، قد أسعفَنا الحظُّ ، فرَمانا معاً في هذه الجزيرةِ ، فكِّرْ لوْ كُنتَ هنا وحيداً فريداً . وكذَلكَ فانّنا نَتَمتّعُ براحةٍ ما كُنا لِنَتَمَتّعَ بِها لوْ عَجِزنا عنْ إفراغِ المركَبِ ممّا نحتاجُ اليهِ ، فاذهبْ وتشجّعْ ، وحاولْ ان تَنظرَ الى الاشياء من وجهتِها الحسَنةِ الجمَيلة . ثُم انظُر الى القدرِ ألم ينْضج الطعامُ بعدُ ؟ .. إني أكادُ أموتُ جوعاً .

وفي الصباحِ التالي سَمعَ جون صَوتَ رفيقِهِ يُناديه من أعلى

الصخوز قائلاً :

ـ تعالَ ... تعالَ يا جون ... يظهرُ لي أني أرى شبحَ زورق ... أجابهُ جون :

ـ اسرعْ ... اسرعْ وانزلْ لنركبَ زورقنا .. ونرى هذا عن قربٍ . وعندما وصلا وجدا زورقاً صغيراً يرقدُ فيه زنجيٌ صغيرٌ بلا حراكٍ فأخذاهُ الى الشاطئ ، ثم حملاهُ الى الكوخ ، وشرعا في القيام بالاسعافات لردهِ الى الحياة . قالَ جون لرفيقه :

ـ أجرِ لهُ حالاً التنفسَ الصناعي ، أما أنا فسأحضرُ زيتَ الكافور واحقنهُ به ، عسانا نتوصلُ لردهِ للحياة .

وبعدَ نصفِ ساعةٍ بذلا فيها كثيراً من العنايةِ والجهدِ ، بدأ اليأسُ يتسربُ الى قلبيهما ، وفي تلكَ اللحظةَ فتحَ الزنجيُ عينيه ، وقد امتلأت بالرعبِ عندما رأى حولهُ رجالاً بيضاً ، وكانَ جون يعرفُ بضعَ كلماتٍ من لغةِ الزنوج ، فتمكنَ من التفاهمِ معهُ ، وبعثَ الطمأنينةَ في قلبهِ ، ثمَّ استطاعَ

الزّنجيُّ الصغيرُ أن يَنهضَ على قدَميه، وجثا على ركبتيهِ يُعبّرُ عن شُكرِهِ العظيمِ للذَيْنِ أنقذا حياتَهُ.



« وجثا على ركبتيه يعبر عن شكره العظيم للذين أنقذا حياته »

٤ ـ جزيرة الزنوج

لقدْ عرفَ جون منهُ أنه يُدعى «بامبي»، وقدْ كان مع رِجالِ

قبيلته يتصيّدون في عرض البحار، فهبّت عليهم عاصفة شديدة، فاحتمى «بامبي» بهذا الزّورق الصغير، ثمّ سقط مغشيّاً عليه من شدّة الجوع والعطش والتّعب.

وبسرعة زائدة أصبح يوسفُ وبامبي صديقين حميمين، وصار كلّ واحد منهما يتعلّم رفيقه كلمات من لغته

وكان هذا الزّنجيّ مساعداً خبيراً يعرف جميع أنواع الأسماك والأصداف ويعرف أنواع الطبخ. وعدا ذلك، فانّ بامبي كان يعرف بالسّليقة احوال الجوّ، وتقلّبات الطقس، فهو يتنبأ بهبوب عاصفة، بينما تكون السماء زرقاء صافية.

حقاً إنه رفيقٌ طيبٌ، فهو دوماً على استعداد ليقوم بخدمة هؤلاء البيض الذين انقذوا حياته، وكانت طبيعته المرحة المتفائلة، مضافةً الى طبيعة جون المرحة ايضاً، قد بعثت في نفس الفتى كلّ طمأنينة وشجاعة.

في ظهر يوم، كان الطقس حاراً جداً، فالتجأ الثلاثة إلى الكوخ، ليحتموا من أشعّة الشمس المحرقة. قال يوسف:

ـ هو ذا زمن الهدوء قد عاد، أفلا يأتي مركب يصطادُ

في هذهِ الجهاتِ ؟ أجابَ بامبي :

ـ إن بِلادي ليستْ بعيدةً من هُنا، وفي اكثرِ الاحيان يأتي إليها رِجالٌ بيضٌ بِسُفُنِهِمُ الكبيرةِ .

ـ هذا جميلٌ يا بامبي ولكننا الآنَ لسنا في بلادِكَ فكيفَ الوصولُ اليها ؟ .. فهزَّ الزنجيْ رأسَهُ وأجاب:

ـ نعم يُمكنُ ذلكَ اذا كان البحرُ هادئاً .

ـ ولكنْ يجبُ ان تقودنا لكي نصلَ الى بِلادِنا إذْ ليسَ لدينا سِوى بوصلةٍ .فكشرَ بامبي عن أسنانِهِ البيضاءِ . وكانتْ هذهِ طريقتُهُ في الابتسامِ . وقالَ بكلِّ بساطةٍ :



ـ أنا انظُرُ الى النجومِ ، واهتدي بها الى الطريق .

بدءُوا يَستعدُّونَ للرحيلِ حالاً ، واستطاعَ الزّنجيُّ الصغيرُ ان يُقدِّم لهمْ مُساعدَةً كُبرى ، فنَصبَ لهُمْ في الزّورقِ صارياًونَشرَ عليه شِراعاً بمهارةٍ فائقةٍ ،وكانت فكرةُ يوسفَ ان يضعَ فيزورقِ بامبي الحوائجَ منماءٍ حُلوٍ ، وزادٍ ،وأغطيةٍ وثيابٍ ، حتى لا تختلَّ موازنةُ الزّورقِ الذي سيحملُ ثلاثةَ مُسافرين .

أشرقَتِ الشّمسُ ساطعةً قويةً في صباحِ اليومِ الثاني، فألقوا نظرةَ الوداعِ على الجزيرةِ التي أحسنَت إليهمْ وأنقذتْ حياتَهُم. احتلوا أمكِنتَهُمْ في المركبِ الصغيرِ ، ونَشَروا الشِّراعَ الذي دفعهُ نسيمٌ خفيفٌ . ثم رفعوا المِرساةَ ،وها هُم مرةً أُخرى يَقومونَ بِمُغامرةٍ جديدةٍ . ثمَّ أخذتْ معالِمُ الجزيرةِ تختفي شيئاً فشيئاً حتى تراءتْ كَنُقطةٍ في الأفقِ ،ثمَّ مالَبِثتْ ان غابتْ عَن الانظارِ . وفى المساءِ ترطّبَ الجوُّ قليلاً . فنظرَ جونالى الصّاري بشيءٍ من الجزَعِ والقَلقِ .

أقبلَ الليلُ فتأملَ بامبي في السماء ، وأخذَ يرقُبُ النّجومَ وقال : نحنُ في اتجاهٍ حَسنٍ وسنصِلُ قريباً » .

وكان جون ويوسفُ يتناوبانَ الحِراسةَ والنومَ ، ولكنّ الزنجي الصغيرَ لم تُغمَضْ له جفنٌ .

وفي مساء اليوم الثاني صاح بامبي بِصوتٍ عالٍ مِلْؤهُ الفرحُ : الأرض . الأرض ! » فأجاب يوسف :

ـ إنّكَ تحلمُ ، فهذه سَحابةٌ عابرةٌ . فقال جون :

ـ أعطِهِ منظاركَ يا يوسفُ ، فهولاءِ الزّنوج لَهم بصَرٌ قويٌّ مُدهِشٌ . تناولَ بامبي المنْظارَ بكلّ خُشُوعٍ ودهْشةٍ ، وظَلّ مُصِراً على انّ ما رآهُ هو الأرضُ . وفي الحقيقةِ فانّ الصديقَين استطاعا بعْدَ ساعةٍ رُؤيةَ اليابِسةِ أيضاً .

فاقتربَ « الأمَلُ الكبيرُ » الزّورقُ الذي يحمِلُهُمْ من تِلكَ الارضِ ، وبعدُ برهةٍ وصلوا اليها .

كان على الشّاطيءْ زنوجٌ قد أسرعُوا لرؤيةِ القادمِين فحيّاهُمْ بامبي بِبضعِ كلِماتٍ ، وهدّأ من روعِهِم ، وخفّفَ من حِدّةِ غرائزهُم العِدائيةِ الوحشيّةِ .

٥ — العـــودة

وفي اليومِ الثاني استطاعوا الوصولَ الى شاطيءْ السّلامةِ ، بعد

انداروا حولَ شاطئٍ صخريٍ، وصاح بامي صيحات الفرح، واعلمَ رفيقيه أنهم وصلوا أخيراً الى ضالّتهم المنشودة.

وما هي إلا لحظاتٌ حتى أقبلت القبيلةُ بأجمعها تحتفي بابنها المفقود وبعنقذيه، وفي اللحظة نفسها صاح يوسفُ قائلاً:

- ها هي سفينةٌ تتراءى أشرعتُها من بعيد.

وبعد ساعةٍ وصلت السفينةُ، وألقت بدورها المرساة. وكم كانت دهشةُ الصديقين كبيرةً عندما وجدا أنّ السفينةَ تحملُ الرئيسَ وبعضَ رفاقه الذين استطاعوا الالتجاء الى جزيرةٍ قريبةٍ بعد ضروبٍ عديدةٍ من المغامرات والمخاطرات. ضمّ الرئيسُ «روبير» يوسفَ بين ذراعيه بحماسةٍ وهو يقولُ:

- كنتُ أظنُّك في عِداد الاموات يا صغيري المسكين، وكنتُ أتساءلُ كيفَ اتجاسرُ على الرجوع الى والدك بدونك. فأجاب يوسفُ «شكراً لك ايها الرئيسُ، وها إنني احتفظتُ لك بشيءٍ ثمين» وقدّمَ له كيس اللآلئ الصغير.

- يا لك من غلامٍ شهمٍ وكم أنا ممتنٌ من عملك هذا. وأريدُ أنْ تحتفظَ بذكرى لهذه السياحةِ الجميلةِ

ثُمَّ فتحَ الرَّئيسُ كيسَ اللُّؤلُؤِ ، وفتَّشَ عن اللُّؤلؤتين الكبيرتين وقدَّمهُما هدِيَّةً للصديقَين. كان يوسف كئيباً جداً لوداع صديقِه بامبي ، فقالَ لهُ :

تقبَّلْ مني أيُّها الصديقُ هذا المنظارَ هديَّةً لك وذكرى للأيام الجميلة التي قضيناها معاً ، وهذا المِنظارُ هُوَ كلُّ ما أملِكُهُ . فأقدِّمُهُ لك عن طيبَةِ خاطر .

ولم يُرِدْ جون أن يكون أقلَّ كرماً من يوسف ، فقدَّمَ لبامبي قدَّاحتَهُ هديَّةً ،وبعد تبادُلِ عبارات الصَّداقة والودِّ ، ركِبَ جون ويوسف الباخرةَ ، والسُّرورُ بادٍ على وجهِ كُلٍّ مِنهُما يتَّجِهان الى بِلادِهما . وبذلك تنتهي مُغامرتُهُما الرَّائِعَةُ السعيدةُ .

مطبعة أوفست هرابو

